موسى بن ميمون

وعقدة الاتصال بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة الغربية

بمناسبة ذكراه المئوية الثامنة

للدكتور ابراهيم مدكور

موسى بن ميمون ، هو فيلسوف الأندلس ومصر فى القرن الثانى عشر ، وأحد كبار حكماء بنى سرائيل الذين خلدوا أسماءهم بما خلفوا من كتب وآراء . ولد بقرطبة فى الثلاثين من شهر مارس سنة ١١٣٥ ؛ وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٠٤ . تنقل بين مراكش وفلسطين ؛ إلا أنه قضى عصر جزءاً عظيما من حياته ، فعاش بها سبعاً وثلاثين سنة يدرس الفلسفة والطب ، ويشغل كرسى الحاخام . فكان بذلك وليد الحياة العقلية الاسلامية ، وتلميذ المدرسة العربية التى أثرت فيه تأثيراً عظيما . وليس ثمت من مثل أوضح لهذا التأثير من كتابه « دلالة الحائرين » ، تلك المرآة الناصعة والصادقة فى أغلب الأحيان ، التى تعكس علينا فى تفصيل ودقة تاريخ شطر كبير من الأفكار الدينية والفلسفية الاسلامية

لا أحاول فى هذه الكلمة القصيرة أن أبين الصلة بين فلسفة ابن ميمون وفلسفة الاسلام ، أو إن شئت بين هذه والفلسفة اليهودية عامة فى القرون الوسطى ، والتى يمثلها رجلنا أصدق تمثيل ؛ فقد تصديت لهذا الموضوع فى بحث حديث العهد ، وأثبت ببراهين لا تدع مجالاً للشك أن ما يصح أن نسميه فلسفة يهودية انما هو امتداد طبيعى للدراسات الاسلامية[1] . ولقد كتب فى هذا من قبل مؤرخون متعددون على رأسهم رينان[2] . وإنما أريد فقط أن أوضح نقطة لم يوفها الباحثون حقها ، ولم يتنبهوا الى أهميتها التاريخية : ألا وهى الدور الذى لعبه ابن ميمون فى نشر الفلسفة والأفكار الاسلامية فى العالم الغربى . لم يكتف مفكرو اليهود باعتناق آراء فلاسفة الاسلام ونظرياتهم ، بل عملوا على نقلها الى المدارس المسيحية ؛ فوصلوا الشرق بالغرب ، وربطوا حلقات التاريخ بعضها ببعض . وفضلهم فى هذا الصدد أوضح من أن ينوه عنه ؛ وحسبنا دليلاً ما صنعوا ببعض الكتب الفلسفية التى فقد أصلها العربى ، ولم يبق لنا منها إلا الترجمات العبرية واللاتينية[1] . فابن رشد مثلا تتعذر علينا دراسته إن وقفنا عند مؤلفاته العربية التى وصلت الينا ؛ ويكاد يكون أعرف الى قراء العبرية واللاتينية منه الى قراء العربية . وعلى الجملة فاليهود الذين تتلمذوا على العالم العربى ، وانتشروا فى كبار العواصم الأوربية يعدّون بحق عقدة الاتصال بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة المسيحية

لم يكن ابن ميمون بالناقل أو المترجم ؛ بيد أن كتابه « دلالة الحائرين » كان من أول ما ترجم الى اللاتينية فى الدائرة الفلسفية والعلوم الدينية . ليس فى مقدورنا أن نحدد بالدقة تاريخ ولا صاحب أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ؛ وكل ما يمكن تعيينه أن هذه الترجمة سابقة لمنتصف القرن الثالث عشر الميلادى : ذلك لأن St Thomas d' Aquin و Albert le Grand يرددان كثيراً اسم موسى بن ميمون[2] ؛ كما أن Alexandre, Guillaume d' Auvergne de Halès يشيران الى « دلالة الحائرين » كمصدر أخذا عنه واعتمدا عليه[3] . لم يكد هذا الكتاب يترجم الى اللاتينية حتى أكب على دراسته كبار فلاسفة القرن الثالث عشر الذين ذكرنا بعض أسمائهم . فأفادوا منه كثيراً ؛ وكان عمدتهم فى تعرف النظريات الاسلامية الهامة . ونستطيع أن نقول إن « دلالة الحائرين » أول وأشمل مؤلف درس فيه اللاتينيون الفلسفة العربية ، وأنه قد عمل على نشر هذه الفلسفة بدرجة لا يعادله فيها كتاب آخر . نحن لا ننكر أن بعض مؤلفات الفارابى وابن سينا وحظاً وافراً من مؤلفات ابن رشد قد ترجم إلى اللاتينية ، غير أن « دلالة الحائرين » كان أسبق من هذه الترجمات وأعظم شيوعاً . فأما الفارابى فما كان يعرفه الا آحاد من فلاسفة الغرب ، وإذا استثنينا Albert le Grand ، لا نكاد نجد مؤلفاً قد أشار الى اسمه

(١) Madkour, La place d' al Fârâbî, p p. 65 - 66, 116 - 118, 169 - 170.

(٢) Renan, Averroès et l' averroïsme, p. 178.

(١) نستطيع أن نذكر من بين هذه الكتب الجزء الأخير من رسالة الفارابى المسماة : « مقالة فى معانى العقل » ؛ وقد بحثنا طويلا عن الأصل العربى لهذا الجزء فلم نعثر عليه . Voir Madkour, op. cit., pp. 148-149.

(٢) Gilson, Archives d' hist. doct. et lit. du moyen âge, Paris 1925, p. 13 en bas.

(٣) Levy, Maïmonide, p. 263.

فى كتاب من كتبه[١] . وأما ابن سينا فبرغم نفوذه العظيم لدى طائفة من علماء القرن الثالث عشر لم يكن بالمقرب اليهم قرب ابن ميمون ؛ ولعل للفوارق الدينية أثراً فى هذه الظاهرة . وأما ابن رشد فقد كانت خرافة إلحاده التى سادت أوربا فى القرون الوسطى ، والتى درسها (رينان) دراسة مفصلة سبباً فى أن ينظر إليه بنظرة خاصة[٢] . على العكس من هؤلاء جميعاً قد استطاع ابن ميمون بفضل كتابه « دلالة الحائرين » أن يمكن من نفوذ الفلسفة الاسلامية فى المدارس الغربية عن طريق غير مباشر لا يشك فيه ولا يخشى خطره

ويجب أن نضيف إلى ما تقدم أن نقد هذا الحبر لبعض نظريات المتكلمين قد حببه ، فيما يظهر ، إلى الفلاسفة المسيحيين . فهو ينقض نظرية الجوهر الفرد (l'atomisme) ، ونظرية تعريف الله (La définition de Dieu) ، ونظرية الصفات الألهية (les attributs divins) بشكل يقربه من أرسطو بقدر ما يبعده عن علماء التوحيد المسلمين[٣] . وقد كان لهذا النقض أثر واضح على كبار فلاســـفة القرن الثالث عشر . ونظرة الى مناقشة St. Thomas لنظرية الجوهر الفرد تحملنا على أن نجزم بأنه اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب ابن ميمون ؛ على أنه هو نفسه يعترف بذلك فى صراحة تامة[٤] ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا الكتاب هو المصدر الوحيد الذى عرف منه الفلاسفة اللاتينيون نظرية الجوهر الفرد الأسلامية ؛ فانا لا نجد أى إشارة هامة متعلقة بهذه النظرية فيما ترجم الى اللاتينية من كتب عربية أخرى . « فدلالة الحائرين » قد اختص إذاً بنقل بعض المسائل الأسلامية إلى المدارس الغربية فى القرن الثالث عشر الميلادى

لم يقف أثر هذا الكتاب فى نشر الأفكار الأسلامية عند القرون الوسطى ، بل جاوزها إلى العصور الحديثة . وذلك أنا نجد لدى واحد كاسبينوزا أو كلايبنتزا آراء كثيرة الشبه بآراء فلاسفة الأسلام . فنظرية النبوة (le prophétisme) عند الأول تشبه شبهاً عظيماً النظرية التى أخذ بها الفارابى ؛ ومشكلة العناية (l'optimisme) عند الثانى لا تختلف كثيراً عما قال به ابن سينا من قبل[١] . ربما يبدو غريباً أن نحاول إثبات علاقة بين مفكرى الأسلام وهؤلاء الفلاسفة المحدثين ؛ خصوصاً وقد جرت عادة مؤرخى الفلسفة الأسلامية أن يقفوا بها عند القرون الوسطى ؛ وما فكر واحد منهم ، فيما أعلم ، أن يدرس الصلة بين هذه الفلسفة وفلسفة العصور الحديثة . غير أنا نرى أن هذه الصلة جديرة بالبحث والدرس ومعتمدة على أسس تعززها ، فقد عرف اسبينوزا كتاب « دلالة الحائرين » وعنى به عناية خاصة ، كما عرفه لايبنتز ، وأثنى عليه ثناء كبيراً[٢] . فعلى ضوء هذا الكتاب نستطيع أن نحدد إلى أى مدى تأثر رجال العصور الحديثة بالأفكار الأسلامية . يخيل الينا أنا أول من تنبه إلى هذه العلاقات التاريخية ؛ وقد حققناها فيما يتعلق بنظرية النبوة[٣] . ونأمل أن يمكن الباحثون فى هذه الطريق التى سلكناها كى يلقوا جزءاً من الضوء على طائفة كبيرة من النقط الغامضة ، ويخدموا فى آن واحد القرون الوسطى والتاريخ الحديث . نحن لا نقول بأن الفلسفة الأسلامية قد أثرت تأثيراً مباشراً فى الفلسفة الحديثة ، ولكنا نلاحظ فقط أن هناك مواطن شبه بين الفلسفتين . فلنعمل إذاً على توضيحها وبيدنا كتاب « دلالة الحائرين » الذى ألف بلغة الأسلام وفوق أرضه وتحت سمائه ؛ ثم نقل إلى أوربا فكان موضع تقدير المفكرين منذ القرن الثالث عشر الميلادى حتى اليوم

ابراهيم مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) Madkour, op. cit., p. 2.

(٢) Renan, op. cit.

(٣) Maïmonide, Guide, édit. Munk, I, 190, 351 et suiv. نأسف لأنا لم نجد أمامنا أثناء كتابة هذه الكلمة الطبعة العربية لنحيل عليها

(٤) St. Thomas Cont Gentes, L. III ch. Lxv. - ch Gilson, Archives, I, p. 20.

(١) Madkour, op. cit., p p - 206 - 209.

(٢) Ebid - Spinoza, Ethique, II. 7; ch. Bréhier, Hist de la philos., t. II, p. 159.

(٣) نعد الآن بحثاً خاصا بنظرية العناية ، ونرجو أن نوفق لنشره فى فرصة قريبة

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٣٥ قرشاً
ثمن مجموعة السنة الثانية (المجلد الأول والمجلد الثانى) ٧٠ قرشاً
وثمن كل مجلد من المجلدات الثلاثة خارج القطر ٥٠ قرشاً